

PHILOSOPHY AND THOUGHT OF IMAM ABU HASSAN AL-NADAWI
TOWARDS THE HERITAGE AND THE DEVELOPMENT OF ARABIC
LITERATURE

نظرة الإمام أبي الحسن الندوي إلى التراث وتطور الأدب العربي

Abdul Rehman, Department of Arabic, Federal Urdu University, Karachi. dr.arykhan@fuuast.edu.pk
Rafi Ullah Al Marwati, Department of Arabic Language, Madrasah Ibn Abbas, Karachi.

ABSTRACT: Abu Al-Hassan Al-Nadawi is considered one of the most famous Muslim scholars in India, he has many writings and contributions in Islamic thoughts, he travelled extensively to various parts of the worlds to advocate for Muslim issues and preach for Islam and explain its principles, he delivered lectures in the universities, scientific organizations and conferences, as a young his early determination has lead him to write historical, literacy and intellectual unmatched writings, beside this Al-Nadwi intent to be himself a preacher and make his own writings and preach, but he saw that he thoughts to preach and travel to the whole to the whole Islamic world, instead of preaching in India only, then he moved to Hijaz many times, and to Egypt, Morocco, Syria, Turkey, and visited America, and European countries, and a raft of more Islamic world capitals, and his traveling were of great influence, Al Nadwi total translated writings has reached to 700 titles amongst them 177 titles in Arabic language, and some of them have been translated to English, French, Turkish, Indonesian, and Bengali languages etc. he was a prolific writer, his method is distinct from others thinkers and contemporary researchers because of his knowledge of many languages like Arabic, Urdu, English and Persian, and familiar with the sources of non-Islamic civilizations as well his deepening in Islamic history. And all his books were distinguished deepened in understanding the secrets of Sharia'a and deep analysis of the problems of the Islamic World. And later we will look to this scientific paper details to a look, philosophy and thought of Imam Abu Hassan Al-Nadawi, towards the heritage and the development of literature.

KEYWORDS: Al-Nadawi, Heritage, Literature, Philosophy.

المقدمة لاغراضة في أن " الأدب العربي " لقد مر بأطوار تاريخية نشأة، وتطور بتطور الحياة العربية وازدهارها، وبتنقله من حياة بدوية إلى حياة مدنية وحضارية، فإذا أراد الباحث أن يتوصل إلى التطورات الحادثة في الأدب العربي، وأن يتطلع على مراحل رقيه إلى أن أصبح علما مدونا ذا مكتبة زاخرة تزينت بأنواع المتنوعة، وتحلت بمصنفات في أبوابه المتفرقة، فلا خلاص له من أن يبحث عن الأدب العربي تطوره حسب العصور المختلفة، وهي: العصر الجاهلي، و صدر الإسلام، والعصر الأموي، والعصر العباسي، والعصر الحديث.

تلقي الأدب العربي من البيئة القروية في الجاهلية وصدر الإسلام: إن العرب الذين كانوا يعيشون منقطعين عن الناس في عالمهم الصحراوي والبدوي بلباسهم الخشن، وبطباعهم الجاف في بيوتهم المصنوعة من جلود الأنعام متخذين أثاثهم وأمتعتهم من الأصواف، الأوبار، والأشعار، وكان رزقهم من الأسودين في غالب الأحيان، أو من حليب الأغنام ولبن الجبال، ولكن على الرغم من ذلك التخلف والكفاف كان ثمة شيء عزيز عليهم، يتنافسون فيه ويتفاخرون به، ألا وهو اللغة الفصحى الخالية من الشوائب، وكانوا يرسلون أبناءهم لتلقي اللغة العربية الأصيلة إلى القرى في نعومة أظفارهم، والداعي على تحمل فراق فلذات أكبادهم عنهم الرضاغة، وتلقي الأدب من البيئة القروية، وكانوا يقصدون الثاني بالإرسال أكثر من الأول؛ لذا ما كانوا يطلبونهم بعد نهاية مدة الرضاغة، بل كان الطفل يتزعزع في تلك البيئة إلى الخامسة أو السادسة من عمره تقريبا، وكان يتلقى الأدب العربي من أفواه وصدور في صورة شعر، وحكمة، ووصية، وخطبة، والمدار في ذلك كان على الرواية؛ فإنه كان لكل شاعر رواية يروي عنه أشعاره وأبياته¹، وعلى مر العصور أصبح هذا الأدب المروي المصدر في الأدب العربي، وسمي

بالأدب الجاهلي . ونجد في كتب السيرة رواية تشير إلى ذلك كما ورد في حديث علي — رضي الله عنه — حيث قال : قدم بنو نهد بن زيد على النبي — صلى الله عليه وسلم — فقالوا: أتيناك من غوري تهامة، وذكر خطبتهم، وما أجابهم به النبي — صلى الله عليه وسلم — قال: قلنا: يا نبي الله، نحن بنو أب واحد، ونشأنا في بلد واحد، وإنك لتكلم العرب بلسان ما نفهم أكثره، فقال: " إن الله — عز وجل — أدبني فأحسن أدبي، ونشأت في بني سعد بن بكر " 2 . ففي هذه الرواية ذكر النبي — صلى الله عليه وسلم — سببين لعمقه في اللغة العربية، وبراعته في فهم لغة الأعراب، وتضلعه من الأدب العربي وهما :

1 — أن الله سبحانه وتعالى أدبه و علمه، وهو سبب لا دخل للبشر فيه، 2 — مكث النبي — صلى الله عليه وسلم — في بني سعد، وقد أشار النبي — صلى الله عليه وسلم — بهذا إلى أنه تلقى هذا الأدب من تلك بيئة قروية وبدوية في بني سعد.

المدينة المنورة مقر الأدب العربي في العهد النبوي : وبعد أن أُعطي النبي — صلى الله عليه وسلم — النبوة، وبدأ القرآن ينزل، وكان يحمل رسالة السلام والأمن والمحبة بأسلوبه المعجز، وبالفاظ كانت لها في اللسان طراوة وفي القلوب حلاوة، لم يكن إنسان ذلك اليوم يتكمن من سد مسام جسمه، أو منع نفوذ القرآن إلى فؤاده؛ فاضطر إلى اللهو واللعب، والصخب والشغب وقت سماع القرآن خوفا من تغلغل آياته إلى ورعه دون إرادته، ومن هنا بدأ الصراع بين حاملي الأدب الجاهلي، وبين كلام رباني، وجرى التحدي بينهما، فتحداهم القرآن بأن يتأوا بمثله، أو بعشر سور مثله تنزلا، أو بسورة من مثله تنزلا ثانيا، لكنهم انبطحوا أمامه، وفشل الأدب الجاهلي فشلا ذريعا في هذا التحدي، ومن هنا أخذ القرآن المركز الأول في كونه مصدرا للأدب العربي، وفاقه في ذلك بسبب نجاحه الباهر عليه، ولكن مع غلبة القرآن على الأدب الجاهلي بسبب حالة المسلمين الاجتماعية في مكة المكرمة لم تتح له فرصة أن يحدث تطورا في الأدب العربي بحيث يجبره بالانتقال من البيئة القروية إلى مكة المكرمة، ولكن عندما هاجر النبي — صلى الله عليه وسلم — إلى المدينة المنورة، وغرست شجرة دولة إسلامية على صعيدها، واستقرت الأمور، ثم حدث تطور عظيم في الأدب العربي، وانتقل من بيئة بدوية إلى بيئة مدنية، وهذا كان أول تطور في تاريخ علم الأدب العربي حدث لعدة أسباب أساسية، وهي :

القرآن الكريم : كما ذكر آنفا لقد اضطر الأدب الجاهلي إلى الانحناء أمام الكتاب الذي أحكت آياته ثم فصلت من لدن حكيم عليم، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ليس هو كلام موزون، ولا هو سجع، نزل بأسلوب رشيق يوافق روح القاري و ينسجم مع وجدانه، فتتح له القلوب أبوابها، والصدور كؤُوتها، عجز أمامه بكمالاته وتعبيره و بأسلوبه ومعانيه عباقرة العرب وجمهاذتهم الذين وصلوا إلى أوج الفصاح وذروة البلاغة بأن يتأوا بسورة من مثله، وأخذ القرآن المدينة المنورة محبطا له ومركزا، فسحب إليها الأدب .

أفصح العرب وأفضل معلم في المدينة : إن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قد أرسله معلما للبشرية، فكان يعلمهم القرآن، ويبين مجمله ويفسره معانيه المكنونة، والكلام الذي كان ينطق به كان موحى في روعه من قبل الله تعالى، وبذلك أصبح النبي — صلى الله عليه وسلم — أفضل معلم في تاريخ البشرية، نطق لسانه المبارك بجوامع الكلم، تجلت فيها عبقريته في اللغة العربية، وخطب خطبا ظهرت فيها براعته ولباقته، حدث بأحاديث بدت فيها معجزات بيانية وقطع ساحرة أدبية، بأسلوب رشيق، وتعبير دقيق، وإذا كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أفصح العرب وأبلغهم، فيكون كلامه كذلك ؛ فكما قيل : " كلام الملوك ملوك الكلام " ، وبذلك كما كانت السنة النبوية مبنية للقرآن، ومفسرة للفرقان، والمصدر الثاني في تشريع الأحكام، فكذا استولت على المركز الثاني في الأدب بعد القرآن، وكان النبي — صلى الله عليه وسلم — في المدينة المنورة، فجرى الأدب إليها .

الوفود : عندما استتب الأمن في المدينة المنورة، و رأت القبة الزرقاء دولة جديدة إسلامية على الغبراء، وبدأت القبائل تدخل في الإسلام فوجا فوجا، وغدت ترسل وفودهم إلى المدينة المنورة يتزأسهم أبلغهم، يعبر عما في نفوسهم بأبلغ كلامهم، وأفصح بيانهم، حتى في بعض الأحيان الصحابة — رضي الله عنهم — ما كانوا يفهمون بعض كلامهم إلا النبي — صلى الله عليه وسلم — كما ورد في حديث علي — رضي الله عنه، فسبب ورود أفصح الخطباء ونزولهم في المدينة المنورة الفينة بعد الفينة الأدب العربي اضطر أن ينتقل إلى المدينة المنورة .

ولكن مع هذا الانتقال حدث هناك تطور في الأسلوب والبيان، والتعبير والتصوير، أما في صورة القرآن و السنة النبوية وأقوال الصحابة التي حفظت لنا كتب الحديث والسيرة هي ثروة أدبية ذات قيمة، تجل فيها بلاغة القائل من حيث الوصف والتعبير يعبر فيها عن معان وأحاسيس دقيقة، كأنها لوحة فنية نسقها الفنان، ووضع فيها براعته وفنانيته، و في نفس الوقت بدل أن يكون في صورة الغزل، والحماسة،

والخطبة، والحكمة أصبح يحمل رسالة دينية، وبدل أن يخدم هوى النفس أخذ عقيدة أخروية في طياته، وتحلى بحلة جديدة صادقة عاطفية، وغلب عليه العقيدة والروح .

تعليم الأدب العربي كعلم وتعيين مادته لأول مرة في العصر الأموي : قبل هذا العصر كان الأدب العربي لم يعلم كعلم أو فن بأن يأتي المعلم ويدرس الأدب العربي بل كان يُتلقى من البيئة في صورة الشعر والنثر أو من المسجد في صورة الآيات القرآنية والسنة النبوية، وأقوال الصحابة رضي الله عنهم _ ولكن في العصر الأموي سافر الأدب العربي من البيئة الاجتماعية و بيئة المسجد إلى قصور الأمراء، وطرق أبواب القلاع والحصون، وبدأ لأول مرة يُدرّس كعلم، وحددت مادته، وهي : الشعر، والخطب، واللغة، وأخبار العرب، وأيامها، وأنسائها³، وبذلك كلمة "الأدب" تطلق على معنيين :

1- المعنى المعروف في زمن الجاهلية وصدر الإسلام وهو " التهذيب الخلقي"، وقد كتب في هذا المعنى عبد الله بن المقفع (ت 142هـ) كتابين : الأدب الصغير، الأدب الكبير، وكلاهما في الأدب بالمعنى الخلقي .

2- أدب الدرس أي ما يلقى المعلم إلى تلميذه، ويعلمه من أشعار العرب، وأخبارها، وأيامها، وأنسائها، وبدأت لأول مرة تستخدم في الإشارة إلى " المؤدّين"، وهم نفر من المعلمين الذين ارتفعوا من تعليم أولاد العامة إلى تعليم الخاصة الخلافة والأمراء فيلقنونهم الشعر، والخطب، واللغة، وأخبار العرب، وأنسائهم، وأيامهم في الجاهلية، والإسلام، ومن يومئذ بدأ ال أدب العربي يدرّس كعلم وفن، واختص معلموا أولاد الخاصة بلقب الأدب "المؤدّين"،⁴ وما أن حاملي الأدب بدأوا يكسبون به قوت عيشهم ؛ لذا ستمّاه الخليل بن أحمد صاحب العروض المتوفى (175هـ) بـ "حرفة الأدب"، وجعلها آفة في قوله : " حرفة الأدب آفة الأدباء "⁵ .

واستمر على هذه الوتيرة إلى نهاية القرن الثالث، و في نهاية القرن الثالث انتهى أدب هؤلاء المعلمين، حتى قالوا: ختم تاريخ الأدباء بثلعب ومبرد، و استمدادا بالتاريخ علمنا أن المبرد توفي سنة 258 هـ، وتوفي ثعلب سنة 291 هـ⁶ .

حركة الكتابة وتطور أسلوب الرسالة : لا شك الأدب العربي قد دخل القصور في هذا العصر، بدأ الأدب العربي يخدم الأمراء والملوك وأبناءهم، وعندما قدم المؤدبون لهم خدماتهم تطرقوا إلى المناصب في الدولة ومن أهمها منصب الكاتب، وكان يُعَدُّ هذا المنصب طريقاً إلى الوزارة، ودعت الحاجة إلى ذلك لتوسع الدولة الإسلامية وفتح بلاد جديدة، وإدارة الأمور عن طريق الخطاب المرسل من الخليفة إلى الأمصار والأقطار ؛ لذا بدأت حركة في تعلم الكتابة، ولكن في بداية الأمر كان الخطاب المرسل عادياً مشتمل بجمل قصيرة حراً من السلال والقيود، و لم يكن هناك فرق بين ما يكتب باسم الخليفة وبين ما يكتبه رجل عادي، ولكن لم يسر هذا الأمر الملوك ؛ فإنهم أرادوا أن يكون كلامهم ملوك الكلام، فمنذ أن تولى الخلافة الوليد بن عبد الملك بدأت حركة تمييز بين ما يكتب باسم الخليفة من غيره إلى أن جاء زمن عبد الحميد المتوفى 122هـ - فهو تولى هذا الأمر، وطور الكتابة وأنشأ أسلوباً جديداً خاصاً به في الرسائل منقها ورقتها وأطال التحييدات في البداية، وظلت الكتابة على أسلوبه في العصر الأموي وفي أول العصر العباسي في الميل إلى الإيجاز، و والقصد في الغلو التمييز خاصة في الرسائل⁷، وأصبحت هذا الأسلوب وحاملوه الطبقة الأولى في الكتاب⁸ .

تدوين أصول الأدب العربي في العصر العباسي : العصر العباسي كان دور التأليف والتدوين، ووضع العلوم والفنون، فقد نشأت فيه دراسات في النحو، والصرف، والعروض، واللغة، والبلاغة، أصبحت هذه العلوم برمتها تخدم الأدب العربي، وقد تطور الأدب العربي في القرن الثالث تطوراً كبيراً بأنه صُنفت فيه كتباً عدت من أصوله، وهي أربعة كتب : أدب الكتاب لابن قتيبة⁹، وكتاب الكامل للمبرد¹⁰، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ¹¹، وكتاب النوادر لأبي علي القالي البغدادي¹²، و قد جعلها علماء الأدب أصولاً له وأركاناً، وما سواها تبعاً لها وفروع 13 ، وعدت أسلوب مصنفها في الكتابة الطبقة الثانية، وكان مقتداهم الجاحظ نهج للمترسلين والمصنفين طريقة جديدة في الكتابة، وهي كانت خالية من الصناعة والتكلف¹⁴. ثم أضاف أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون (732هـ-808هـ) إلى هذه الكتب كتاباً خامساً، وهو "كتاب الأغاني" لأبي الفرج علي بن الحسين بن المرواني الأموي الأصفهاني (284هـ - 356هـ)، والذي وصفه ابن خلدون بقوله : " ولعمري إنه ديوان العرب، وجامع أشعرات المحاسن التي سلفت لهم في كل فن من فنون الشعر، والتاريخ، والغناء، وسائر الأحوال، ولا يعدل به كتاب في ذلك فيما نعلمه، وهو الغاية التي يسمو إليها الأديب، ويقف عندها، وأنى له بها"¹⁵ .

اختصاص الشعراء وعلماء اللغة بلقب " الأدباء" : في العصر الأموي اختص العلماء الذين كانوا يعلمون أبناء الأمراء بلقب المؤدّين، وبذلك

انحصر الأدب العربي وتعلمه بين جدران القصور، ولكن طبيعة الأدب العربي الطليقة والحرية لم ترض بأن تبقى ذابلة، ففرق الأدب تلك الأسوار، بدأ يتحلق في فضاء المجتمع الإسلامي بجناحيه، يشعر بحريته وروحه، مزيناً بسلاسته وروقه الطبيعي تحت إشراف أمثال الجاحظ، والمبرد، وابن قتيبة، و أبي علي الفاي، وابن عبدربه، و أبي الفرج الأصبهاني، فانتقل ذلك اللقب من أولئك المكتسبين به إلى الأدباء المهتمين به، انفراد بتلقيه علماء اللغة والشعراء في نهاية القرن الثالث؛ لذا عندما وضع علي بن الحسين الباخروي (ت 467هـ) كتابه (دمية العصر) عقد فيه فصلاً (لأئمة الأدب) قال في أوله: " هؤلاء قوم ليس لهم في دواوين الشعر رسم، ولا في قوانين الشعراء اسم، وقد أفردت لهم باباً 16، ثم ترجم طائفة من علماء اللغة؛ فقد ذكر الباخروي صنفين للأديب، وهما: الشاعر وعالم اللغة، ولم يذكر سواهما؛ لأن علوم اللغة كلها، وعلوم البلاغة كانت تخدم الأدب و بل دخل في موضوعه النقد الذي نجده في مثل كتاب (الكامل) للمبرد، و(البيان التبيين) للجاحظ، وشمل الأدب الغناء، وكانوا يعتبرون معرفة النغم، وعلل الأغاني من أرقى فنون الآداب كما ذكر في الشفاء على كتاب " الأغاني ".

تأثر الأدب العربي بالأدب الأجنبي ونشأة أسلوب المقامة: ما إن خرج الأدب العربي من الأسوار الحجرية، وتنفس السعداء، خامره سرور، واعتزته نشوة، شعر بأنه أنعم بالا، وأهنأ عيشاً من ذي قبل، وذلك في زمن أمثال الجاحظ وابن قتيبة، حتى أطرق رأسه أمام عاكفين على أدب الإفرنج في منتصف القرن الرابع وجد نفسه مقيداً بقيود غريبة، بدأ يساوره خمول روحه، وذبول روقه الطبيعي، وظهرت هناك جماعة الأدباء المتكلمين المقلدين للعجم، وأنشأوا طريقة جديدة في الكتابة مقيدة بالسجع القصير والجناس، وتضمن الملح من التاريخ والعلوم، والاستشهاد بالمنظوم في المتنور، والتوسع في الخيال والتشبيه¹⁷، وكان أبو الفضل محمد بن الحسن المعروف بابن العميد المتوفى 360هـ، كان يقود هذه الطبقة، وتبعه في ذلك الآخرون مثل أبي القاسم إسماعيل صاحب بن عبّاد المتوفى 383هـ، واستنتج من هذه الطريقة أبو الفضل أحمد بن الحسين الهمداني أسلوب المقامة، وهو أول من أجاد هذا النوع¹⁸ وحذا في ذلك محمد القاسم بن علي الحريري المتوفى 516هـ حذوه، ومنذ ذلك العصر بسبب هذه الأغلال والسلاسل فقد الأدب العربي حريته، ثم جاء زمن أبي علي عبد الرحيم الملقب بـ القاضي الفاضل المتوفى 695هـ، فجاء مجدداً لهذا الأسلوب زعماً منه، ولكن بسبب نفوذه في السلطة، انتشر أسلوبه المقيّد المقلد في أوساط الناس، وأصبح هذا الأسلوب هو المعني بالأدب، وتبعه كل من جاء بعده، فأصبحت هذه الشروط والصفات والتقاليد من الصناعة والسجع والبدع هي العمدة فيه¹⁹.

طبيعة الأدب العربي عند الندوي: إن الإمام الندوي من الأدباء الذين أخذوا نبراس الأدب بين يديه عند ما كانت تهب العاصفة التي أتت على أدب كل أمة، مسحت روحه و عبقريته، ذهبت بروقه وأناقته، تركته مثل شجرة جرداء في الشتاء انكسرت أغصانها، واعوجت أفنانها، ثم ألصقت عليها أوراق مصنوعة مزورة، زُخرفت بها وزيّنت، نالت إعجاب الناظرين بخضرتها المزيفة، وكذلك لم يكن حال الأدب العربي في زمنه بأفضل من عجوزة خفيفة عوجاء طويلة الساقين الهزيلتين لكنها تجملت بأنواع من آلات التجميل، لبست لباس الحرير، وتقادت بالآلي والدرر، وترغمت أنها شابة أجمل زمانها، لم تقع عليها نظرة أحد إلا وعشقها، وبالفعل قد خدعت المتطفلين بمحاسنها المزخرفة، ولكن أُنّي لها أن تخفي مواضع قبحها عن المتعمقين، وتستتر على بشاعتها عن متطالعين إلى مواضع العلة فيها ومدركوها! وكان الندوي من أولئك الجهابذة الأفذاذ الذين كانوا ينظرون إلى حقيقة الأدب العربي النابذة في ذلك العصر، وفي نظرهم لم يبق للأدب العربي من أصلاته إلا نزا يسيراً في كل مصر، وجده خالياً من العاطفة والرسالة، لا يهتز له القلب، ولا تتحرك له النفس، فلم يُعجب بمنظره الجذاب، بل قد نظر إلي الأدب بنظرة الثاقب حتى وصل إلى نخاع عظمه، وأخذ له أشعة صينية عرف بها عاهة أصابته تحت ذلك الجمال الأخاذ الغريب منه، فارتجفت نفسه، وارتعشت قريحته، فرفع صوته الرخيم لمساعدة الأدب، وإرجاعه إلى أصالة، فرفض كون الأدب الحلية اللفظية المختلقة، بل جعله إجابة إلى نداء الضمير²⁰، وعرفه بـ " التعبير البليغ الذي يحرك النفوس، ويثير الإعجاب، ويوسع آفاق الفكر، ويغري بالتقليد، ويعث في النفس الثقة "²¹. بل الأدب عند الشيخ الندوي مثل كائن حي يملك قلباً حنوناً، وضميراً واعياً، يتمتع بشعور رهيف، ذو عقيدة جازمة، وهدف معين، يتألم بما يسبب الألم، ويرفع بما يبعث الفرح والسرور، وإن لم يتصف الأدب بهذه السمات، فإنه عند الندوي أدب خشبي جامد، وميت خامد، أشبه بالحركات البهلوانية والرياضيات الجبابرة²².

نظرة الندوي إلى التراث الأدبي قدا: إن القارئ لكتب الشيخ الندوي يشهد له بأنه كان عاكفاً على مكتبة الأدب العربي، بل على المكتبة الإسلامية برمّتها، على الرغم من ضخامتها ووفرة مادتها، وهو قد خاض غمار التراث الإسلامي بحريته وأصالته آتياً تقليد المتسلطين على الأدب،

أو لأساليب المسيطرة عليه، كأنها خشب مسندة، الشيخ الندوي يمتلك ملكة أدبية، تبرز نفسه عند جمل بدعية طليقة، وتجيش غريزته وقت وقوعه على أساليب رشيقة، يظهر سروره عند ما يعثر على قطع أدبية أصيلة، ويطير فرحاً حيناً يقرأ عبارة بلاغية أنيقة، لا يتألك على مشاعره عند وصف دقيق أو تعبير رقيق، ومن ناحية أخرى يألف لو يشعر بسلب الحرية في الأدب، ويحس بتقليد أدب إفريقي، تنفرت نفسه عن تصنع وتكلف يحول بينه وبين إيصال رسالة هادفة، فنظر إلى هاتين وجهتين طالع التراث الأدبي القديم، وقسمه على قسمين:

1 _ الأدب العربي الطبيعي: هو أصل الأدب العربي وأصل اللغة العربية الفصحى التي كان العرب يستخدمونها في كلامهم في حياتهم اليومية، على مواعدهم عند أكلهم وشربهم، عند قيامهم وقعودهم، عند غضبهم وسرورهم، مرتجلين دون التكلف والصناعة، وقد انتقل ذلك الأدب إلينا عن طريق مصادر معتمدة، ووصله إلينا الأدباء الأحرار أصحاب المواهب الوفاة، وأولي العواطف الولاة مثل الجاحظ، وابن قتيبة، وابن عبدبر، والمبرد، وأبو الفرج الأصبهاني، وأمثالهم، الذين لم يتخذوا الأدب حرفة ومكسباً.

وكذلك هناك من العلماء العباقرة الذين يشتهروا بالأدب لكن عندهم نتاج أدبي رائع لكنه في غير المصادر الأدبية التي تكالب عليها طالبوه، وتهاافتوا عليه تهافت الفراش على الشع، بل جاء في كتب التاريخ، أو السيرة أو مباحث علمية، أو اجتماعية وما عداها، وفي الحقيقة لم يرد المصنف بذلك خدمة الأدب، بل وقع في كتابه عفواً، صدر عن غريزته الأدبية وفطرته، فقد جعل الندوي هذه المدرسة المغمورة مدرسة الأدب الأصيلة حيث قال: "إن هذا الأدب الطبيعي الجميل القوي كثير، وقديم في المكتبة العربية ... مع أنه هو الأدب الذي تجلت فيه عبقرية اللغة، وأسرارها، وبراعة أهل اللغة ولباقته، وهو مدرسة الأدب الأصيلة الأولى"²³.

2 _ الأدب التقليدي الفني: وهو القسم الثاني عند الندوي أدب صناعي مزين صنعه المتكفون بالسجع والجناس والمقيد المغلول والسقيم المسلول والمنتمل الخذول ربطوه بالحبول وفرضوا عليه شروطاً لم يكن للأدب العربي عهد بها، وهذه الشروط والقيود بدل أن تخدم الأدب واللغة العربية هي عند الشيخ الندوي سبب بهاء اللغة وروعتها، وسداً منيعاً لتقدم الأدب العربي، كما ذكر وهو ينقد أسلوب الرسالة والمقامة، فقال: "ثم جاء دور المتكلمين للعجم، ونغ في العواصم العربية أمثال أبي إسحاق الصائبي، وأبي الفضل ابن العميد، والصاحب ابن عباد، وأبي بكر الخوارزمي، وبدیع الزمان الهمداني، وأبي العلاء المعري، واخترعوا أسلوباً للكتابة والإنشاء هو بالصناعة اليدوية، والوشى، والتطريز أشبه منه بالبيان العربي السلسل، وكلام العرب الأولين المرسل الجاري مع الطبع، وغلب عليهم السجع والبديع، وغلوا في ذلك أذهب بها بهاء اللغة، وقيد الأدب بسلاسل و أغلال، أفقدت حريته وانطلاقه، وخفة روحه، وجاله"²⁴.

نظرة الإمام الندوي إلى علماء اللغة والأدب: ينظر الإمام الندوي إلى الأدب وإلى علماء اللغة من حيث الأدب الطبيعي والاصطناعي، فإذا وجد الأدب العفوي أثنى عليه وإذا عثر على التكلف والتصنع أخذ عليه ويفرق بين هذا وذاك وربما اجتمعت كلتا الجهتين عند أديب واحد فهو يختار صفة الحياد حين ذاك لا يميل عن الحق لا ينظر إلى الشخصية بل ينظر إلى عمله من ناحية أدبية، فيحمده على محاسنه إذا أجاد ويضع أصابعه على موضع العلة إذا وجدت له وقد اختار هذا المنهج وقت تعقيبه على كتب الزمخشري وابن الجوزي، فجعل الزمخشري في كتابه "أطواق الذهب" متكلفاً في الأسلوب بينما أثنى على تقديمه لكتابه "الفصل" وفي بعض المواضع من تفسيره "الكشاف" وكذلك يرى أن ابن الجوزي لم يؤفّق في كتابه في الأدب "المدّش" ومن ناحية أخرى جعله مسترسلاً بليغاً في كتابه "صيد الخاطر" كما قال: "وترى الكاتب الواحد إذا تناول موضوعاً أدبياً، وتكلف الإنشاء تدلى، وأسف، وتعسف وتكلف، ولم يأت بخير، وإذا استرسل في الكلام، وكتب في موضوع علمي أو ديني أحسن وأجاد"، هكذا نرى الزمخشري متكلفاً مقلداً في "أطواق الذهب"، وكتابه موفقاً بليغاً في مقدمة "الفصل"، وفي موضع من تفسيره "الكشاف"، ويكاد ابن الجوزي أن لا يكون موفقاً في كتابه "المدّش"، وكتابه مسترسلاً بليغاً في كتابه "صيد الخاطر"²⁵.

ولو يتصفح الباحث مكتبة الأدب العربي فيرى أن "أطواق الذهب" للزمخشري و "المدّش" لابن الجوزي هما من أهم الكتب الأدبية، وعُداً من أفضل كتبها، ولكن الإمام الندوي لم يجعلهما موفقين فيها نظراً إلى تكلفها وتعسفها فيها وتقليدها، و هما موفقان في كتابين آخرين نظراً إلى سلاستهما مع أنها ليسا من كتب الأدب، وهذا دليل واضح مثل الشمس الساطعة في رابعة النهار أن الأدب الحقيقي عند الندوي هو الأدب الطبيعي لا الأدب المزخرف التقليدي، بل والأدب الاصطناعي والتقليدي المغرق في السجع والجناس هو سبب تخلف الأدب عنده يقول: "إنها _ رسائل ومقامات _ ليست الأدب كله، وإنما لا تحسن تمثيل أدبنا العالي الذي هو من أجمل آداب العالم وأوسعها، وإنما جنت على الفرائح والملكات الكنائية، والمواهب والطاقات، وعلى صلاحية اللغة العربية، ومنعت من التوسع، والانطلاق، وأفاق الفكر، والتعبير،

والتحليل في أجواء الحقيقة، والخيال، وتخلفت بهذه الأمة العظيمة ذات اللغة العبقريّة، والأدب الغني فترة غير قصيرة" ²⁶.

فقد ذكر الندوي في طيات كلامه أربعة أمور، وهي من الأهمية بمكان:

1 _ المقامات والرسائل ليست هي الأدب فقط، بل هي جزء من الأدب، أما الأدب فدائرته رحبة وواسعة.

2 _ أسلوب المقامة لا يمثل الأدب العربي كما هو حقه.

3 _ على الرغم من كون الرسائل المقامات جزء الأدب لكنها جنت عليه من ثلاث نواحي، وهي:

أ - ضعفت بسببها الملكات والمواهب.

ب - جنت على صلاحية اللغة العربية و منعها من التوسع.

ج - تسبب في ضيف الفكر والتعبير.

د - تخلفت بها الأمة في باب اللغة والأدب.

ومن هنا يستطيع الباحث إدراك استيعاب الندوي للمكتبة الأدبية الغامرة، وعلاقته الوثيقة بالتراث الأدبي القديم، وصلته الوطيدة به، ورأيه في حامل لواء الأدب العربي في العصور المختلفة بأساليبهم المتنوعة سواء كانت طبيعية وعاطفية، أو اصطناعية وتقليدية، وتمييزية ووشية، وأثر هذه الأساليب على الأدب العربي إيجابية أو سلبية، ولكن مع هذا لا بد من التنبيه ثمة إلى أن الإمام الندوي قد أسلوب الرسالة والمقامة بيد أنه لم يخرج من الأدب العربي، بل هي جزء منه؛ لذا قال: "إنها ليست الأدب كله". وجعلها أدبا فنيا إن لم يكن طبيعيا، وأنها ثروة أدبية، وأسلوب من أساليب الكتابة؛ لذا عندما يريد استعراض جديد للأدب لم يستطع من الاستعراض عن هذا الأسلوب، بل ذكر في كتابه "مختارات من أدب العرب" بعض النماذج من الرسائل والمقامات، واعتذر من ذكرها بنفس العذر الذي ذكره ²⁷.

الإبداع في لأدب العربي على يد الندوي: إن الإمام الندوي كان مفوقا من قبل الله _ عز وجل _ وملهما حيث ثام بخدم الأدب العربي من نواحي جديدة، وفتح أبوابا جديدة للبحث والنقاش، والدراسة والتحقيق، والكتابة والتصنيف والتأليف في الأدب العربي، وهذه المقالة محاولة علمية في هذا الصدد شارحة في ذاتها وسنأخذ بعض الأعمال التطويرية للأدب العربي من قبل الإمام الندوي.

توجيه النظر إلى ينابيع الأدب المهمة: كما ذكر أن الإمام الندوي له نظرة ثابتة على عيون الأدب العربي، وعلى دافئ في بطون الكتب وثناياها على مر العصور والأجيال، وعنده مصادر للأدب أكثر بكثير مما حُدد فيها الأدب وخُصر منذ أن سيطر عليه أسلوب وحيد من القرن الثالث، ومنذ أن اعتنى به علماء اللغة، واهتموا بالكتب المصنفة في ذلك الأسلوب نظما ونثرا، شرحا وتعليقا، دراسة وتحقيقا، تدريسا وإملاء، وبذلك اتخذ الأدب العربي اتجاهها معينا جرف الناس مثل السيل العرم، ولكن الإمام الندوي تصدى لهذا السيل الجرف، ووقف في وجه ذلك التيار المستمر منذ القرون، وخرق ذلك السياج الذي سُيج به الأدب العربي، وبدأ بالبحث عن مواضع حسن الأدب في مصادر أخرى لم يسبق إليها أحد من هذه الناحية.

مصادر الأدب عند الندوي: يقول الندوي تعقيا على قطع أدبية في كتب الحديث والسيرة وغيرها: "إن القطع التي تخدم اللغة والأدب أكثر مما تخدمه كتب اللغة والأدب، وهي التي تفتق القريحة، وتشط الذهن، وتقوي الذوق السليم، وتعلم الكتابة الحقيقية، هي منشورة في كتب الحديث، والسيرة، والتاريخ، والطبقات، والتراجم، والرحلات، وفي الكتب التي ألُفت في الإصلاح، والدين والأخلاق والاجتماع، وفي بحوث علمية ودينية، وفي كتب الوعظ والتصوف، وفي الكتب التي سجل فيها المؤلفون خواطرم، وتجارب حياتهم، وملاحظاتهم، ورووا فيها قصة حياتهم" ²⁸. وبهذا فتح الإمام الندوي بابا جديدا في هذا الموضوع، وأشار على الباحثين والمتخصصين في الأدب العربي إلى عمل جديد، وإلى ناحية كبيرة من الأدب العربي المستورة في الدفاتر والقفاطر، وهذا لم يكن ادعاء منه فحسب بل قام بذلك بحجته، وأخرج من تلك المصادر الجديدة الآلي والدرر تخدم العربية والأدب العربي وتؤدي حقها ودعا إليه بلمسة قلبه الحارق، وبأسلوبه الأنيق، و سآخذ في هذا المقالة أهم المصادر الجديدة للبحث عن قطع أدبية.

1 _ **كتب الحديث:** إن الكتب الأحاديث عند الندوي هي أوثق مصدر للغة العربية، فإنها نقلت لنا بروايات ثابتة موثوقة اللغة العربية التي كانت تسود المجتمع في العهدي الذهبي للأدب العربي زمن نزول القرآن الذي انبطح أمامه الأدب الجاهلي، وهي مصطفة من أدب القرآن، وهي قد حفظت لنا جمال اللغة في عهد أفصح البشرية _ عليه السلام _ على الإطلاق، والذي رأى منه العالم البشري معجزات نُفُوتِيَّة

كانت تحكم الجنان والحنان، و ظهرت منه بيانات بلاغية لم يسمعها البشر في أساطير الأولين، وكتب الحديث نالت بين دفتيها اللغة النظيفة التي كانت في زمن الصحابة الذين تخرجوا على يد أرفع المعلمين وأفضلهم الذي عرفه التاريخ؛ لذا يقول الإمام الندوي وهو يدعو إلى البحث عن الأدب في كتب الأحاديث قائلا: "إن الكتب الحديث مشتملة على معجزات بيانية، وقطع أدبية ساحرة، تخلو منها مكتبة الأدب العربي _ على سعتها وغناها _ وهو دليل على صحة هذه اللغة ومرونتها، واقتدارها على التعبير الدقيق عن خواطر ومشاعر، ووجدانيات وكيفيات نفسية عميقة دقيقة، ووصف بليغ مصور للحوادث الصغيرة، وهي الكتب التي حفظت لنا مناهج كلام العرب الأولين، وأساليب بيانهم... وهي تمتاز بأنها قد اتصل بسندها، وصحت روايتها؛ فهي أوثق مصدر للغة العربية التي كانت سائدة في عهدها الذهبي الأول، وللأدب العربي الذي كان منشرا في جزيرة العرب"²⁹. ولم يقف الشيخ الندوي عند هذا بل استخرج الدرر الأدبية من كتب السنة النبوية، وذكر على سبيل المثال لا الحصر قصة تخلف كعب بن مالك _ رضي الله عنه _ عن الغزوة التي ذكر فيها كعب _ رضي الله عنه _ وصف ذلك الجو الكئيب الذي عدّ فيه خمسين يوما من حياته العصبية، وصور فيه خواطر جاشت به صدره، وهاجت به عواصف في قلبه وقت الإعراض عنه من كان أقرب إليه، وصور الصلة الروحية، والحب العميق الذي بينه وبين النبي _ صلى الله عليه وسلم _، فكانا يسترقان البصر والنظر؛ لذا لم ترحزه عنه دعوة الملوك، وخاصة وصف السرور والفرح الذي غمره وقت قبول توبته .

وكذلك حديث الإفك وما فيه من البلاغة الأدبية، والتعبير الدقيق، والوصف العميق، ظهرت فيه أم المؤمنين عائشة _ رضي الله عنها _ قوتها البيانية، حسن تصوير العواطف والمشاعر النسوية، واستشهد بحديث الهجرة وما ذكر فيه التفاصيل، وقال في الأخير: "هناك روايات أخرى طويلة النفس، ضافية البيان، تشتمل على غرر الكلام، وبدائع الحسان، ومناهج العرب الأولين في كلامهم، كحديث صلح حديبية، وحديث الإيلاء، وغير ذلك، كانت تستحق أن تكون في المكتبة الأولى في دراستنا الأدبية، ولكنها أفلتت من نظر المؤلفين والناقدین؛ لأنها لم تدخل في دواوين الأدب؛ ولأنَّ تصوّرهم للأدب كان تصوّرًا محدودًا جامدًا لا يعدو الصنعة"³⁰.

2_ كتب السير والتاريخ: من أهم مصادر اللغة العربية النقية كتب السير والتاريخ التي زاخرة بسحر البيان، مُفَعِّمةً بجمال الكلام، ومليئة بجودة البيان، وعدوبة اللسان، وهي أخاذة اللبان، وجذابة الآذان، يقول الندوي: "وفي كتب التاريخ والسير أحاديث الوصف والحلية تجد من القدرة الفائقة على الوصف والتعبير والبيان الساحر لدقائق الحياة، وحوائج النفس، وترى من اللغة النقية الصافية، واللفظ الخفيف، والتعبير الدقيق الرقيق ما يطربك، ويملؤك سرورا ولذة وثقة وإيمانًا بعبقريّة هذه اللغة"³¹.

3_ الأدب الصوفي: الشيخ الندوي لقد أشار إلى مصدر جديد في الأدب العربي ومرجع باكر لم يخطر على بال أحد وهو الأدب الصوفي، في كلام أولياء الله العارفين، ساجدين لله رب العالمين، مستغفرين على ذنوبهم، خاشعين في ركوهم، تخجلين بعصيانهم عن الستار، خائفين بذنوبهم من الجبار عندما تنهيج صدرهم، وتفيض قلوبهم بكلام يكون متصفا بالحسن والجمال، والروعة والرفقة، والتضرع والخشعية، يقول الإمام الندوي: "وفي كلام الصالحين العارفين قطع أدبية خالدة لم تفقد جمالها وقوتها على مر العصور والأجيال، وترى من ذلك نماذج من كلام السادة الحسن البصري، وابن سالك، والفضيل بن عياض، وابن عربي الطائي... كانت هذه القطع الأدبية منتورة في هذه المكتبة مطوية مغمورة في أوراق كتب ومؤلفات لا تجدها في ركن الأدب والإنشاء في مكتبتنا العربية، ولا يذكرها المؤرخون للأدب في كتبهم، هذه القطع أصدق تمثيلا للعربية، وأدبها الرفيع، ومحاسنها من كثير من الكتب المختصة بالأدب، ومن كثير من المجمع، والرسائل، والمقامات، والمقالات الأدبية التي تعتبر أساس الأدب، وزهو العربية، ومحصل العقول"³².

وجهة نظر الندوي في مراحل تطور الأدب العرب: ذكر سابقا أن الأدب العربي مر بمراحل عديدة من التطور والتقدم، وصعد سلم الرقي على تعاقب الأيام والسبوت والأعوام والشهور، وانتعش بتمدن الأحاسيس والأفكار، وبصقل العواطف والمواهب، وتغيّرت أساليبه حسب الأمصار والأقطار، وحسب العصور والعقول، ولكن حينما ندرس الندوي وأفكاره دراسة تحليلية، فنجد أنه يقسم تطور الأدب العربي على قسمين:

1 _ التطور الطبيعي والإسلامي: حدث هذا التطور بعد نزول القرآن حيث كان الأدب يخلو من العقيدة والرسالة، ويخدم هوى النفس، كان المقصود منه التباهي والتفاخر، جمال الكلام، وفصاحة البيان، لكنه لا يهدف إلى الروح وصفاء، أما بعد نزول القرآن فتغير الأدب، وأصبح إسلاميا عقيديا، يحمل رسالة الهداية والرشد والخير والبركة، يخرج عن قلب حي دون التكلف يجيب إلى ما ينادي إليه الضمير، وإلى ما يهف إليه الشعور السليم؛ لذا جعله الندوي كائنا حيا، يتألم بما يتسبب به، ويخلق في الساء من السرور إذا شعر بالفرح والبهجة. ومن

ناحية أخرى لم يكن رقي الأدب العربي مقصوراً في خيمة رسالة الهداية فحسب، بل ترقى أسلوبه، وترقى تعبيره بنثر القرآن وبيانه المعجز الذي جعله أدبا عالما خالدا باقيا إلى ما دامت السموات والأرض، وهو نوع من الأدب الذي هو خارج عن وسع البشر وإدراكه، وكذا تحلى بالسنة النبوية وبالجموع الكلم بالفصاحة والبلاغة، والوصف الدقيق، والتعبير الرقيق، بعيدا عن التكلف والصناعة بحيث يبقى الأدب الاصطناعي يعط أنامله من الحيرة والغيب.

2 _ **التطور الزخرفي الفني :** وهذا النوع من التطور جاء من التقليد والتكيف، و بعد أن قُيد الأدب بالقيود والشروط في صورة أساليب الرسالة والمقامة وقد زعم المؤرخون والباحثون أن هذا هو التطور الحقيقي للأدب العربي الذي سيطر عليه منذ القرن الثالث إلى القرن السادس حقيقيا وإلى القرن الحديث تقريبا .

المقارنة بين الأدب الإسلامي وبين الأدب الفني : ولكن عند الندوي هذه الزخرفة اللفظية والتكلف لا تُعدُّ التطور بل هو التخلف للأدب العربي، بل وأصبح عائقا في سبيل تطوره، بل وذهب برونق اللغة العربية، وهو ليس أدبي حقيقي بل تقليد الأدب الأجنبي، وبذلك فقد الأدب العربي روحه الطبيعي، و خلا عن الرسالة العاطفية والعقيدة التي كان يحملها، ولقد وُضَّح الفرق بين هذين النوعين من الأدب بمثال، فقال : " أما الكتابات الأدبية فقد كان غالبا يكتب بالافتراح من ملك، أو وزير، أو صديق، أو لإرضاء شهوة الأدب، أو تحقيق رغبة المجمع، أو حبا للظهور والتفوق، والفرق بينها وبين الكتابات المنبثقة من القلب والعقيدة كالفرق بين الصورة والإنسان، وكالفرق بين النأخة والشكلى، ويزكرني هذا قصة رؤينا في الصبا، وهو أن كلبا قال لغزال : مالي لا ألحقك، وأنا من تعرفه في العدو والقوة، قال : لأنك تعدو لسيدك، وأنا أعدو لنفسي"³³.

أسباب تغلب الأدب الاصطناعي على الأدب الطبيعي عند الندوي : هذه وقفة من الأهمية بمكان لا بد من الوقوف ليديها، وهي أن الأدب الطبيعي يخدم نفس اللغة العربية حقيقيا، وأنه إجابة للضمير، مثير الشعور والإحساس، معبر عن الخواطر والضائر وعلى الرغم من ذلك تغلب عليه الأدب التصنعى والتقليدى وهو سؤال عقلاني ومنطقي، ولكن الشيخ الندوي لم يخذلنا هنا أيضا بل أشار إلى أربعة أسباب في طيات كلامه لهذا الأمر، وهي : 1 الأدب الطبيعي لقد صدر عن الرجال الذين لم ينقطعوا له عن العلوم الأخرى، ولم يتخذوه تخصصا له، ولم يشتهروا به ولا بالصناعة الأدبية . 2 لم يكن ذلك الأدب معنونا بعنوان الأدب يشتهر به ويذيع، بل أصبح مستورا في المصادرون أن يتجلى للقارئ بصورة معينة فبقي مجهولا . 3 مضان الأدب الطبيعي ومصادره ليست تقليدية للأدب، وهي ليست معروفة به ؛ لنا لم يعتنوا به ولم ينتهوا إليه³⁴ . 4 تصور الأدباء كان للأدب محدودا جامدا ما كان يتجاوز الصناعة³⁵ . 5 ومن جهة أخرى صادف الانحطاط الفكري في المجتمع الإسلامي، والعقم الأدبي في العالم الإسلامي³⁶ ، فوجد ميدانا فارغا له دون منازع⁶ وهناك سبب لم يذكره الشيخ الندوي ولكن تم التوصل إليه بعد دراسة تراجم حاملي لواء الأدب التقليدي في صورة الرسالة أو المقامة أن هؤلاء تغلغلوا إلى مناصب حكومية، إما كانوا وزراء كمثل عبد الحميد الذي كان وزيرا لمروان، وابن العميد الذي كان وزيرا لركن الدين ابن بوية، أو الصاحب بن عباد الذي وزره ركن الدين بعد أن قتل أستاذه ابن العميد، أو قترهم الأمراء وطلبوا منهم وصفهم ومدحهم وأصبحت كلماتهم مسموعة مثل الهمداني والحريري والخوارزمي، فكانوا يكتبون بإشارة الأمراء لإرضائهم ؛ لنا قال الشيخ الندوي : إنه لم ينتشر بفضل الكاتب بل لأنه وافق هوى النفس³⁷ .

ونظرا إلى هذا أراد الندوي أن يقلب الموازين لمقياس الأدب العربي من جديد، ودعا إلى ميزان في التقويم :

ميزان جديد لتقويم الأدب عند الندوي : منذ القرون وعندنا ميزان خاص وقال معين للأدب العربي لا يخرج عن إبداع الشعر، ولا صناعة النثر المقيد بسجع وجناس، ولا يتعدى كتب المتهنين، ولا دفاتر الكتاب المحترفين ،و للأدب كتب محدودة، وللكتابة أساليب معينة، وهي في الحقيقة لا تلمس حرارة قلبية، و لا تملك شرارة نفسية، ولا تحرك كيديات روحانية، ويحمل رسالة إسلامية، فالإمام الندوي رتب قالبا جديدا يصيغ فيه مادة الأدب، ويقاس به جودته وروعته، أركان هذا الميزان أربعة أمور حسب ما تم التوصل إليها بعد دراسة منهج الشيخ الندوي في الأدب العربي :

1 _ **حرية الأدب :** الأمر الذي خَرَّ نفس الشيخ الندوي هو كون الأدب مقيدا بالشروط ؛ لنا الأمر الأساسي عنده أن يكون الأدب حرا بحيث يصاغ صياغة طبيعية مسترسلة بعيدة من التقليد، حرة من القيود والشروط؛ فإنها عند الندوي مفسدة للأدب حيث قال : " فقد التصقت بالأدب شروط وصفات وتقاليد هي المفسدة له، الطامة لنوره"³⁸.

2_ أن يكون الأدب إسلامي : عند الإمام الندوي من أهم ميزات الأدب أن يكون إسلامياً، يحمل في طياته رسالة إسلامية، وتكون الكتابة صادرة عن عقيدة وعاطفة، وعن فكرة سليمة، تخرجه ظلمات الجهل، ودياجير الضلالة، والسر في ذلك أن حب العجم للأدب العربي واللغة العربية هو حبه للقرآن، ولسنة نبهم — عليه ألف تحية وسلام ؛ فإنهم يريدون بذلك التوصل إلى فحوى كلام رب العالمين، وكلام ورحمة للعالمين، فلو جرد الأدب العربية واللغة العربية من عن روجي ديني، وانقعت الصلة بينه وبين الدين الداعي إلى تعلمه والرغبة فيه ³⁹، والأدب الذي صدر عن العقيدة هو جدير بالبقاء عند الشيخ وهو يثني على كتبه شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم الجوزية : " ترى في كتبها مثالا رائعاً للكتابة الأدبية العالية يتدفق قوة، وحياة، وتأثيراً، وذلك هو الأدب الحي الخليق بالبقاء، ولا سبب لذلك إلا أنه كتب عن عقيدة وعاطفة" ⁴⁰. ولصياغة الأدب العربي صياغة إسلامية أنشأ رابطة للأدب الإسلامي، وكان الهدف منها تأصيل الأدب الإسلامي، وإظهار علاماته في القديم والحديث، ووضع الأسس والقوائم للنقد الأدبي الإسلامي، ولأن يكون الأدب إسلامياً جعل مداره على أربعة عناصر، وهي : 1 _ العقيدة، 2 _ العاطفة، 3 _ الإخلاص، الصدق ⁴¹.

3 _ أن يكون الأدب واقعياً : الأدب العربي الجدير بالعناية عند الندوي والحري بالتناول هو الأدب الواقعي يوافق الواقع الذي يتعرع فيه، ويطابق البيئة التي يُدرس فيها، ويناسب أحوال الجو الذي يُتعلم فيه التاريخية الإسلامية بصورة عامة، الأحوال التاريخية الوطنية بصورة خاصة، ويتقضي حاجة رجال التعليم في ذلك المكان ؛ لذا الشيخ لا يرضى بتدريس دروس خاصة بدولة أو مكان ككتاب في الأدب في غير تلك الدولة وغير ذلك المكان. فمثلاً كتاب "القراءة الرشيدة" الذي يدرس في بعض المدارس الهندية وهو — على سبيل المثال — يتحدث عن جزية الروضة في مصر، ونشيد عن مصر العزيزة، وعن عيد النيل ووفاءه، وعن الأهرام المصرية والقناطر الخيرية، فإن مثل هذا الأدب لا يوافق الجو الحجازي والهندي مثلاً، ولا يوافق أحوال طلبته من هذه البلاد ؛ لذا دعا الندوي إلى استبدال مثل هذه الدروس في الأدب دروساً في السيرة النبوية، وفي تاريخ الإسلام، وعن رجال الإسلام وأئمنه، و دروساً عن الأمكنة والأثار الأنيبة الوطنية التي شجدها المسلمون، وعن أعياد ومواسم إسلامية، ففي باكستان والهند مثلاً نضع الدروس ما تتعلق بهذه البلاد أو عاماً للمسلمين كدروس عن آثار الملوك الإسلاميين في هذه البلاد بصورة أو في العالم الإسلامي بصورة عامة، في الرجال نضع دروساً متعلقة بمعرفة فاتحي الهند، والغزاة المنتصرين، والملوك الصالحين، ورجال العلم والدين الذين أنجبتهم أرض الهند ⁴²، وأجره هذا الأمر على تصنيف كتابه "القراءة الراشدة".

4 _ أن تكون الكتابة هدفية : الإمام الندوي كما يريد أن تكون الكتابة طبيعية، نزيهة من التصنع والتقليد، مشتملة على دقائق معنوية، وأن تكون لطيفة السبك، فذلك من يبتغيها هدفية، توصل المعلومة إلى القارئ، ولا يكتفى في الأدب عنده جمال السبك، حسن الكلام، وفصاحة البيان، بل مع ذلك هو يريد أن يكون تربوياً، حتى يقتنع القارئ عصافير بحجر واحد، وقد أصبح هذا الأمر باعثاً على تصنيف كتابه " قصص النبيين ، يقول : " رأى المصنف كتباً صغيرة لبعض أدباء مصر في حكايات الأسد والذئب، والقرود والذباب ؛ حتى الخنازير والكلاب، فصيحة العبارة ، قليلة المغزى، عربية الوضع، أفرنجية الروح، إسلامية اللغة، جاهلية السبك، فيها صور الحيوانات في اللباس الغربي ، فساء أن لا يقرأ أبناء المسلمين في العربية أيضاً إلا قصص الحيوانات ، والأساطير والحرفات، فكتب لهم قصص الأنبياء والمرسلين — عليهم الصلاة والسلام — بأسلوب يحكي الأطفال وطبيعتهم " ⁴³.

الندوي مجدد الأدب العربي في عصره : وبعد أن أصبح الأدب العربي مقلداً للأدب الأجنبي، وغدا الكلام السجع والمزج بالجناس هو المعني بالأدب ، وبدأ علماء اللغة يتنافسون في اختلاق كلام مزخرف ظاهره جميل، وباطنه قموه، ويتظاهرون بهرج كلام لا يعبر عن واقع، فقهر الأدب، ورجع إلى الورا، وأصبح يشبه الأدب الجاهلي في الزخرفة، وأقبح منه في الزرقة والبهجة، والتصنيع والتقليد، والوشى والتعنيق، فكما أحدث القرآن والسنة النبوية وأقوال الصحابة تطوراً في الأدب العربي، ووصفته بصفات باطنية مغزية، فكذلك دعا الإمام الندوي إلى ذلك الأدب الأصلي من جديد، فكان الأدب الفني أصبح عنده أشبه بالأدب الجاهلي في خلوه عن الروح والعقيدة فأراد أن يرجعه إلى كونه إسلامياً حيث حلاه القرآن والسنة وأقوال الصحابة حتى يتحل بتلك الرسالة، وذلك لا يمكن في المصادرة الرائجة في مدرسة الأدب فقط، بل هذا الأمر يدعو بالشدة إلى مصادرة أخرى للبحث عن الأدب الطبيعي ؛ لذا دعا إلى مصادر محملة، وبهذا أصبح مجدداً للأدب العربي في شبه القارة الهندية على الإطلاق وفي البلاد الإسلامية بصورة عامة .

العودة إلى الأدب الأصيل : وبهذا نادى الإمام الندوي إلى العودة إلى الأدب الأصيل مرة أخرى، وإلى اللغة العربية النقية، وجمع الآثار الأدبية الرائعة الطنانة الرنانة الخالدة منذ العصور التي اهتمت بسبب عدم ذكرها في كتب خاصة ولا فهي أولى بالأدب من التعبيرات المصطنعة، فهي بحاجة ملحة إلى جمعها وتنسيقها وترتيبها في حلة جديدة أدبية، ويكون من الظلم على العربية والجنابة عليها إن لم يراع ذلك النتاج العقلي الصفي الطبيعي الخالي من التكليف اهتماماً؛ فإنها في الحقيقة لباقة العربية، وحسنها ورشاقها، وأناقها، فلعل الفتح يفتح هذا الباب في الأدب العربي بيد الجهابذة العاقرة في المستقبل.

صياغة الأدب من جديد: عندما فتح الشيخ الندوي باباً جديداً للبحث عن الأدب العربي في مصادر غير معروفة بكونها كينايح الأدب العربي، اقتضى منه استعراض جديد للأدب؛ لذا طلب من العلماء والأدباء الماهرين في الفن المتحاملين الشدائد والصعاب، المتجاوزين الحواجز والعراقيل تنسيق المواد اللغوية والأدبية في باقة جديدة تشتمل على زهرة من كل حديقة قديمة وحديثة، وذكر لذلك شروط جمعها في رباعيات، وهي أنه بحاجة إلى أربع، وعليه أن يجتنب عن أربع، وأن لا يخاف من أربع، ويجب أن تتوفر فيه أربع، وإليك تفصيلها:

من يقوم بهذا العمل الجبار يحتاج إلى أربع: 1_ الشجاعة، 2_ الصبر والتحمل، 3_ رحابة الصدر، 4_ ووسعة النظر.

ولا تكون فيه أربع: 1_ ضيق التفكير، 2_ الجمود، 3_ التعصب لفهمه الخاص للأدب، 4_ التعصب للبلد، أو لطبقة، أو لعصر.

لا يخاف من أربع: ضخامة العمل، 2_ اتساع المكتبة الأدبية، 3_ لا يوحشه عنوان ديني، 4_ لا يمنعه من الاختيار اسم قديم لا علاقة له بالأدب والأدباء. يجب أن يتصف بأربعة: 1_ حر التفكير، 2_ بعد النظر، 3_ التجربة الواسعة، 4_ يأخذ الأدب بأوسع المعنى وهو: أنه تعبير عن الحياة وعن الشعور والوجدان في أسلوب مفهم مؤثر لا غير⁴⁴. إن الإمام الندوي لم يكتف بذلك بل وضع الحجر الأساسي في هذا الباب بنفسه ليكون قدوة للآخرين وأسوة لهم، فرتب كتابه الفصل "مختاراً من أدب العرب". وقد وضع في هذه الباقة أزهار متنوعة من مصادرة مختلفة متفرقة، أدبية وغير أدبية، وسأشير ثمّة إلى أنواع المصادر التي تم النقل منها في هذا الكتاب، فأقول:

القرآن والسنة : قد زيّن كتابه بقطع مقتبسة من القرآن إشارة إلى أنه الأصل في الأدب، واقتبس من السنة النبوية _ على صاحبها ألف تحية وسلام _ اقتباسات رائعة دليلاً على أنها على المرتبة الأولى من البلاغة البشرية.

وعندما نشق عباب كتاب "مختارات من أدب العرب"، نرى الإمام الندوي قد انتخب فيه من مصادر الأدب وأصوله، وما عداها من الكتب الشهيرة في الأدب القديم ومن كتب البلاغة، وكذلك انتقى من مصادر الأدب المعاصر مثلاً: وحي القم، والنظرات، وهو شيء عادي، ولكن المقصود بالذكر هناك المصادر التي لم تُعرف كمصادر الأدب، ولكن هي مشتملة على درر أدبية، واجتبت لنا منها الإمام الندوي، وهي ما يلي: **كتب الحديث والسيرة :** قد اختار في هذا الكتاب بعض النصوص كتب الحديث مثلاً قصة "تخلف كعب بن مالك عن الغزاة" من الجامع الصحيح للإمام البخاري، وكذلك اصطفى بعض النصوص من كتب السيرة، وخذ على سبيل المثال "سيرة ابن هشام، وزاد المعاد". **كتب العقيدة وعلوم القرآن :** أخذ من كتب العقيدة مثلاً "المنقذ من الضلالة"، ومن كتب علوم القرآن كدلائل الإعجاز. **كتب الفرق والملل وأصول الفقه :** استمدّ فيه من كتب الفرق والملل "الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح"، ومن كتب أصول الفقه "حجة الله البالغة". **كتب التاريخ والتراجم :** استقى فيه من كتب التاريخ كمثل مروج الذهب، ومقدمة ابن خلدون، ومن كتب التراجم كمثل وفيات الأعيان، وبتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، مثلاً تناول من التراجم العامة كـ "النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية". **كتب المواعظ وكتب البلدان والمجالات العلمية :** اعترف فيه من بحر كتب المواعظ مثل "صيد الخاطر"، كما أنه تطرق إلى كتب البلدان مثل "أم القرى"، مع ذلك لم يغض بصره عن **المجلات العلمية** (مجلة المسلمون العدد الخامس). قد جمع فيه بين الأدب الطبيعي، وبين الأدب الفني التقليدي، جمع فيه بين الأدب القديم والحديث؛ فنبه من مناهله القديمة، وارتشف من مصادره المعاصرة الجديدة، جمع فيه النصوص السهلة والنصوص الصعبة، كرجع فيه من نصوص الأدباء الجهابذة، وذكر نصوصاً أخرى لمن لا يفتد من الأدباء المحترفين بسبب حسنها وجمال الأدبي، عبّ عباب تقدم الأدب العربي، وتطوره التاريخي، ومن هناك وردت فيه رسائل ومقامات، والأدب الاصطناعي، ولكن أثبت بذلك أنه لم يتعصب لفهمه الخاص للأدب _ كما هو شرط للقيام بهذا العمل _ فمع كونه آتياً التصنع والتكلف في الأدب، ولكنه في الاستعراض الجديد للأدب لم يعرض عنه؛ لأنه أسلوب من أساليب الكتابة، وأنه واقعي تاريخي ما يمكن غض البصر عنه. وقد جعل الشيخ الندوي كتبه الثلاثة: قصص النبيين، والقراءة الراشدة، ومختارات من أدب العرب خطوة في سبيل تقديم الأدب العربي حيث قال: ألفت قصص

النبين، وكتاب " القراءة الراشدة، ثم ألقت مختارات من أدب العرب، كانت أول خطوة جريئة في سبيل تقديم الأدب العربي في شكله الطبيعي غير المصطنع⁴⁵.

نتائج البحث :

1. في الجاهلية وصدر الإسلام الأدب العربي كان يُلقى من بيئة قروية، ثم تطور وانتقل إلى بيئة مدنية، فأصبح المدينة المنورة مقر الأدب العربي بسبب ثلاثة أمور : 1 _ القرآن، 2 _ كون النبي _ صلى الله عليه وسلم _ في المدينة المنورة، 3 _ ورود الوفود في المدينة.
2. بدأ تعليم الأدب العربي كعلم في العهد الأموي، ولُقّب مجموعة من معلمي الأمراء بـ المؤدبين، وتطور أسلوب الرسالة في ذلك الحين، ثم دونت أصول الأدب في العهد العباسي الأول، وفي نهاية القرن الثالث اختص الشعراء والكتاب بلقب الأدباء، وفي القرن الرابع تأثر الأدب العربي بالأدب الأجنبي، ونشأ أسلوب المقامة، و سيطر على الأدب أسلوب الرسالة والمقامة، وأصبح الأدب مقيداً.
3. الأدب عند الندوي على قسمين : الطبيعي، الفني التقليدي، لكن جعل الأدب الفني سبب تخلف للأدب العربي، ولكن مع ذلك لم خرج من الأدب وإن لم يرغب فيه، وذكر له نماذج في كتابه مختارات كاستعراض جديد للأدب.
4. فتح باباً جديداً للبحث في الأدب العربي بلفت النظر إلى مصادر الأدب الجديدة.
5. التطور الحادث في الأدب عنده على قسمين : التطور الطبيعي والإسلامي، والتطور الفني الزخرفي، لكن الفني غلب خصمه بسبب ستة أمور : صدور الأدب الطبيعي من الذين لم يشتهروا به، ولم يكن معنونا بالأدب، مصادره لم تكن معروفة بالأدب، كان للأدب تصور محدود، وبسبب الانحطاط الفكري، والمناصب الحكومية ساعدت الفني في السيطرة.
6. عناصر الميزان لمقياس الأدب عند الندوي أربعة : الحرية، أن يكون الأدب إسلامياً، أن يكون واقعياً، وأن يكون هادفاً.
7. عناصر الأدب الإسلامي عنده أربعة، وهي : العقيدة، العاطفة، الإخلاص، الصدق.
8. استعرض الأدب بصورة جديدة في كتابية : القراءة الراشدة، ومختارات .

الهوامش

- 1 - الزيات، أحمد حسن، تاريخ الأدب العربي، دار نهضة القاهرة، مصر ، ص 14
- 2- السخاوي، محمد، المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، دار الكتاب العربي، بيروت، ط: 1، 1985، ص 73.
- 3 _ _ الرافعي، مصطفى صادق، تاريخ آداب العرب ، دار الكتب العلمية ، ط 1 (1421 هـ - 2000م)، ص 29.
- 4 _ المصدر السابق ص 33.
- 5 - الثعالبي، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، دار المعارف، القاهرة ، ص 658.
- 6 _ تاريخ آداب العرب ص 33.
- 7 _ تاريخ الأدب العربي، الزيات ، ص 216.
- 8 - المصدر السابق 217.
- 9 - الدينوري، عبد الله بن مسلم بن قتيبة، أدب الكاتب، مؤسسة الرسالة .
- 10 - المبرد، محمد بن يزيد، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق عبد الحميد هندواي، وزارة الشؤون الإسلامية ، المملكة السعودية.
- 11 - الجاحظ، عمرو بن بحر بن البصري، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة خانجي، 1418 هـ _ 1998م.
- 12 - القالي، أبو علي إسماعيل بن القاسم البغدادي، كتاب الآمالي ، ، الهيئة المصرية لعامة للكتب، 1975م.
- 13 - ابن خلدون، عبد الرحمن، تاريخ ابن خلدون، المحقق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط 2 (1408 هـ 1988م ج 1، ص 763.
- 14 - تاريخ الأدب العربي ، ص 217.
- 15 - تاريخ ابن خلدون ج 1 ، ص 763.
- 16 - الباخريزي، علي بن الحسن بن علي، دمية القصر ، دار الجيل، بيروت، الطبعة: الأولى، 1414 هـ ، ج 3 ، ص 1479.

- 17 - تاريخ الأدب العربي ، ص 218.
- 18 - المصدر السابق ، ص 243.
- 19 _ الندوي، أبو الحسن علي ، نظرات في الأدب، دار البشير ، ط: 2 . 1418 هـ - 1997 م، ص 29.
- 20 _ المصدر السابق ص 32.
- 21 - المصدر السابق ص 22.
- 22 - الندوي ، الدكتور، محمد أكرم، أبو الحسن علي الندوي العالم المربي والداعية الحكيم ، دار القلم ، دمشق ، ط: 1، ص 401.
- 23 - الندوي، أبو الحسن علي ، مختارات من أدب العرب، دار ابن كثير ، دمشق ، ط: 1، 1420 هـ - 1998 م، ص 8.
- 24 - المصدر السابق ص 14.
- 25 _ نظرات في الأدب ص 31.
- 26 _ مختارات من أدب العرب ، ج 1، ص 20.
- 27 - مجلة الأدب الإسلامي العدد 26 ، المجلد السابع ص 52.
- 28 _ مجلة الأدب الإسلامي العدد 27 ، المجلد السابع ص 160.
- 29 _ مختارات من أدب العرب ص 9.
- 30 _ نظرات في الأدب ص 27 .
- 31 _ مختارات من أدب العرب ص 13.
- 32 _ المصدر السابق ص 18.
- 33 _ مختارات من أدب العرب ج 1، ص 17
- 34 _ مختارات من أدب العرب ج 1، ص 13
- 35 _ نظرات في الأدب ، ص 27
- 36 _ المصدر السابق ، ص 29 .
- 37 _ المصدر السابق ، ص 29 .
- 38 - مختارات من أدب العرب ج 1 ، ص 16.
- 39 _ الندوي، أبو الحسن علي، القراءة الراشدة، تحقيق السيد ماجد الغوري ، دار ابن كثير، دمشق، 1421 هـ - 200 م، ص 24
- 40 _ مختارات من أدب العرب ، ج 1، ص 18.
- 41 _ مجلة البعث الإسلامي، عدد ممتاز عن الشيخ أبي الحسن الندوي، العدد : الرابع، والخامس، والسادس، السنة 1420 هـ، 1421 هـ، الشهر: ذو الحجة، محرم، صفر، ص 77.
- 42 - القراءة الراشدة ، ص 23
- 43 _ القراءة الراشدة ، ص 26
- 44 _ مختارات من أدب العرب ص 19.
- 45 - مجلة الأدب الإسلامي ، ص 123.